أحمد شوقي أمير شعراء كل العصور

● كرمة ابن هانئ

■■ منذ يومين احتفلت مصر بإحياء ذكرى شاعرها وشاعر العروبة الأعظم « أحمد شوقي » وتحول بيت شوقي « كرمة ابن هانئ » المطل على النيل في الجيزة إلى متحف قومي يضم تراثه الشعري والمسرحي وآثاره وكل ما يخصه .. تقديراً من الدولة لشاعر قد استخرج من لغة العروبة أجمل ما فيها ليشكله قريضاً يتدفق باقتدار الشاعرية .. وجمال الفن .. متغنياً بأمجاد مصر والعروبة والإسلام !

عبد العال الحمامصي

وشوقي لا يخص مصر وحدها .. فهو شاعر العربية في كل ديارها .. لهذا جاءت وفودها تشارك في الاحتفال وتجدد له البيعة أميراً للشعراء .. كما جاءت وفودها من قبل تخلع عليه الإمارة وتسلمه مقود الزعامة .. وليس هناك من شاعر عربي التفت حوله قلوب العرب وبلغ من الشهرة وحقق من المجد .. ما أتيح لهذا الشاعر المتفرد ..

نقد كان الشرق بأسره وما زال يتغنى بشعره .. ويوم كان يرسل قصيدة جديدة .. كان العالم العربي يعتبر ذلك حدثاً يشغل الناس .. فتتداولها المحافل .. وتتسدر بها الألسنة .. وبجانب انجازاته الشعرية كان هو الرائد الأول لفن الشعر المسرحي في أدبنا العربي .. وأنه عبد أرضاً لم يطرقها أحد من قبله .. وإذا كانت الأمة العربية قد أفاضت عليه من حبها وتقديرها كجماهير قارئة ومستمعة .. فإن الأدباء والنقاد قد انقسموا حوله ما بين أنصار يفرطون في الحب إلى حد اعتبار شعره معجزة تسمو على النقائص أو الهنات .. وخصوم يكادون يجردونه من كل حسنة ويعتبرونه شاعراً مصنوعاً يفتقد الأصالة والشاعرية .. ولم يكن كل ما كتب عنه يجري على هذه الوتيرة .. فهناك كتابات اتسمت بالانصاف والموضوعية .

ومن هذه الكتابات دراسة نقدية قدمها الدكتور شوقي ضيف منذ ربع قرن في كتاب بعنوان « شوقي - شاعر العصر الحديث » .. والآن تسولنا المناسبة للتساؤل .. هل تغيرت نظرة المؤلف إلى شوقي بعد هذه الفترة .. هل هناك في الكتاب ما يمكن أن يتراجع عنه .. أو ما يمكن أن يضيفه جديداً لرؤيته عنه ..

بجانب أسئلة أخرى عنت لي .. توجهت بها إلى الدكتور شوقي ضيف . وأعطاني الرجل هنا اجابته !

شوقي .. هو شوقي على الدوام !

● قلت للدكتور شوقي ضيف : يعتبر كتابك « شوقي - شاعر العصر الحديث » من أهم الدراسات التي مسحت عالم شوقي بكل جوانبه .. الآن بعد ربع قرن على وضع هذا الكتاب .. هل تختلف رؤيتك لشوقي .. عن الرؤية التي تضمنها الكتاب السالف ذكره ؟

- لا تختلف رؤيتي الآن لشعر شوقي عن رؤيتي له منذ لمحو ربع قرن حين ألفت كتابي عنه . ذلك أن شوقي يحتل في شعرنا الحديث مكانة رفيعة . لا في مصر وحدها . بل في العالم العربي جميعاً . وهي مكانة يشترك معه فيها البارودي وحافظ ابراهيم . فهم الذين استطاعوا أن يكسبوا لمصر زعامة الشعر العربي في العصر الحديث . ويعد شوقي أكثر من صاحبيه عذوبة في الألفاظ وتحليقاً في آفاق عدة . وبذلك يعد السابق المجلي في التمكين لمصر من هذه الزعامة التي سبقت زعامتها للعالم العربي في النثر بعشرات السنين !

وهذه الرؤية لمكانته هي التي دفعتني إلى دراسته بموازين عادلة . إذ انقسم النقاد في زمنه بين متحيزين له ومتعصبين عليه . فأردت أن أتبين حقائقه الأدبية في وضوح .. بكل ما في شعره من تيارات .. وتأصاد فيه من مؤثرات . وما ابتكره من مسرحيات .. ولا تزال نفس الرؤية ثابتة في نفسي لا تختلف عن رؤيتي القديمة لا في قليل ولا في كثير !

●●●

● من أهم انجازات شوقي مسرحه .. كان قيمة كبرى في عصره .. بجانب فضل الريادة .. هذا المسرح هل ننظر إليه الآن كتراث .. أم في اعتقادك أنه ما زال يصلح للعرض والذوق المعاصر . ويمكنه أن يجد جمهوراً يتقبله ؟

- لا شك أن شوقي يعد أول من أوجد للعرب في العصر الحديث مسرحاً شعرياً .. فقبل مسرحه لم تكن هناك الا بعض مسارح هزلية أو مسارح الغناء والطرب .. وبذلك يكون يحق هو الرائد الأول للمسرح العربي الحديث . وهي ريادة تعددت فيها المسرحيات . فهناك خمس مآس شعرية ومسرحية نثرية غير مهزلته المعروفة « الست هدى » .. ولشوقي دائما نظرات نافذة لكما أنه في شعره الغنائي الروح الوطنية والعربية وجدها في أروع القصائد كذلك صنع في

مأساه . اذ أودع فى ثلاث منها العواطف الوطنية المصرية « مصرع كليوباترا - قيس - على بك الكبير - القومية العربية » مجنون ليلى - عنترة - أميرة الأندلس » والأخيرة كتبها نثرا لا شعرا .

ولعل فى ذلك ما يدل على أن هذه المسرحيات تحمل ما يؤكد لها البقاء إذ منها ما يخاطب الجمهور المصرى فى كل زمان ومنها ما يخاطب الجمهور العربى فى كل عصر . وليس هذا وحده ما يتيح لها البقاء . فشوقى فى رأيى كان من الكادحين فى هذا العمل .. فهو حين أقبل على صنع مسرحيات لم يقبل عفوا بدون دراسة .. بل حاول أن يدرس وأن يتعرف على الدارس المسرحية .. ووعى بقوة المدرسة الكلاسيكية الفرنسية فى القرن السابع عشر . وعرف أنها تستمد مسرحياتها من التاريخ كما فعل كورنى وراسين فحاكاها فى هذا الاتجاه . وأيضا فى كونها تغلب الواجب على العاطفة فكليوباترا ضحت بحبها لأنطونيو من أجل مصر :

أموت كما حييت لعرش مصر
وأبذل دونه عرش الجمال

وتناس ضحت أيضا بحبها لتاسو رفضت الزواج من قيس حتى تفدى شعبها من شروره قائلة :

ومالى لا أعطى الحياة إذا دعت
بلادى ، حياتى للبلاد ومالى !

وبالمثل ضحت ليلى بحبها لقيس حفاظا على التقاليد القبلية والعرف العشائرى .

وبالمثل وعى كذلك المدرسة الرومانسية . إذ نراه يتأثر بها فى مسرحه . ويتضح هذا التأثر فى انفصاله معها عن المدرسة الكلاسيكية وما تقيدت به من نظرية الوحدات الثلاث . « وحدة الزمان والمكان والموضوع » فهو مثلا لا يتقيد بوحدة الموضوع فيجرى فى مأساه بعض القصص الجانبية بجانب القصة الأساسية فقد أجرى فى « مصرع كليوباترة » بجانب قصتها مع أنطونيو قصة حابى وفيلانة . وذلك عندما لا يفيد التحام الحوادث فى المسرحية . وتأثر أيضا بالمدرسة الرومانسية فى إدخاله العناصر الغنائية فى المسرحية مخالفا بذلك المدرسة الكلاسيكية التى كانت ترى الفصل بين الأنواع .

وفى هذا ما يؤكد بقوة على أن شوقى لم يحجم على التأليف المسرحى دون دراسة وثقافة . وقد انتخب لنفسه ما يراه ملائما لشعبه من المسرحين الكلاسيكى والرومانسى . ولم يقف عند ذلك فقد تمثل الأحوال السياسية لشعبه والشعوب العربية فأدخل العواطف الوطنية والقومية . كما أدخل تيارا أخلاقيا . وبالمثل أدخل تيارا غنائيا . إذ نراه يتوقف فى مسرحياته ليعطى الفرصة لمواقف غناء وتلحين من حين لآخر حتى يشبع رغبات جمهوره الذى حاول أن ينتزعه من مسرح الغناء والطرب السابق له .. وهذا معناه أن شوقى حاول أن ينفذ إلى مسرح عربى جديد يلائم المصريين والعرب جميعا . ولعل فى هذا ما يدل على أن مسرح شوقى لا يزال صالحا للعرض . ولا يزال من الممكن أن يجد جمهورا يقبل عليه . لأنه مسرح متكامل من الوجهة الفنية الخالصة .. ويرضى المشاعر الوطنية والقومية .

وحقا هناك بعض نقد وجه إلى مسرح شوقى ولكنه لا يهدم مسرح شوقى . إنما هى آراء نقدية من شأنها أن تنير السبيل أمام المحاولات الجديدة !

عاد من المنفى فتدفق شعره بالوطنية

● يلاحظ أنه بعد عودة شوقى من منفاه بعد ثورة ١٩١٩ تدفقت أشعاره بالوطنية والتغنى بالقضايا العربية .. ولم تكن بهذا التدفق قبل هذا التاريخ .. ما سر هذا فى اعتقادك ؟

- معروف أن شوقى ظل حتى منفاه بعد خلع الخديو عباس يعيش حبيس وظيفته فى القصر نحو ربع قرن لا هم له الا تدبيج المدائح فى عباس .. فإن تركه فإلى الوجهة التى يريدها من مدحه للخليفة التركى . وبذلك ظل يعيش فى درب محفوف بالاشواك مقيدا بأثقال تحول بينه وبين الحرية فى أن يكون خالصا لوطنه . ولكن ينبغى أن نلاحظ أن شوقى رغم هذه القيود التى كانت تهبطه حاول أن يتخلص من ذلك حينا بعد حين .

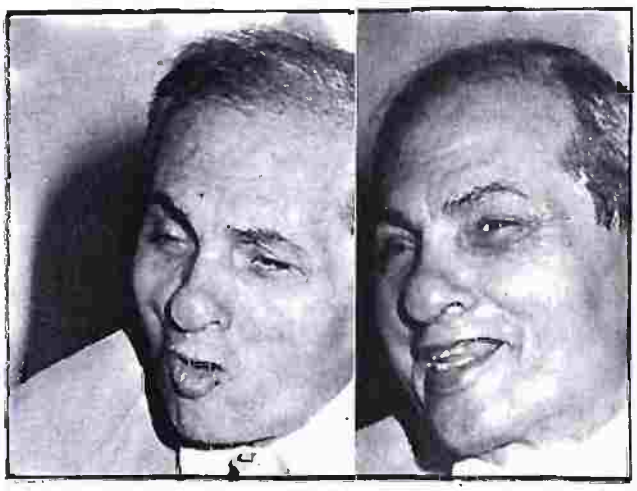

د. شوقى ضيف

وكان أول ما صنعه نظمه لقصيدة « كبار الحوادث فى وادى النيل » . وفيها نستشعر حبه لمصر واحساسه القوى بأمجادها الغابرة فى مثل قوله :

« وبنينا فلم نخل لبان
وعلونا فلم يجزنا علاء »

وعلينا أن نتذكر قصيدته عن « أنس الوجود » وكذلك قصيدته عن « النيل » وهما رائعتان يتجلى فيهما حبه لمصر واحساسه المتدفق بها .

ثم ينفى إلى اسبانيا بعد خلع عباس ويحس فى أعماقه بظلم المستعمر الذى حرمه من وطنه ويظل يتغنى بوطنه وأمجاده .. وبالعروبة . ويعود من المنفى ليجد أبواب القصر مغلقة دونه . ويجد دماء الشباب الذكية مراقة على ثرى وطنه فيستشعر العواطف الوطنية بقوة . ويصبح منذ هذا التاريخ شاعر الشعب المعبر عن آلامه وأحلامه .. ويرتجف لكل ما يرتجف له الشعب . ويسعد بكل ما يسعده .. وينطلق ليستحث الشباب على الجهاد والفداء .. ودحر المستعمر والقضاء على وجوده .. ويجعل من التغنى بأمجاد الوطن الغابرة دائما للشباب كى يستعيدوا لهذا الوطن أمجاده .. والكفاح من أجل أن يكون مستقبله كما كان ماضيه .

ونخلص من هذا أن الوطن لم يكن غائبا عن شوقى فى شعره منذ بواكير حياته .. وقد استحال فى شعره معينا كبيرا يرتل له أشعاره .. حتى إذا نفى وعاد من منفاه مضى يحاول أن يجيله بركانا ثائرا يأتى على المستعمر وأعوانه .. ولم يكتف بوطنه يحفزه على النضال فقد وقف بجانب كل بلد عربى ينازل الاستعمار داعيا شبابه إلى الثورة وأهله إلى الكفاح وبقية أقطار الوطن العربى إلى مساندته .. لقد كان شاعر العروبة المعبر عن أحاسيسها ومشاعرها فى كل مكان .. وقد أمثلا غضبا وحنقا حين علم بما فعله الاحتلال الفرنسى بدمشق من دمار ورعب فوقف يصرخ فى أبناء سوريا يطالبهم ببذل الدماء .

« وللأوطان فى دم كل حر
يد سلفت ودين مستحق
وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرجة يدق »

وكان لا ينسى ما يربط البلدان العربية من أواصر الرحم والقربى الوثيقة وما أروع تصويره لهذه القربى عندما يقول :

« كلنا أن بالعراق جريح
لمس الشرق جنبه فى عمان »

وظل على الدوام يتغنى بالصلات التى تربط البلدين الشقيقين مصر والسودان

« وما هو ماء ولكنه
وريد الحياة وشريانها
تتمم مصر بنابعه
كما تم العين انسانها »

وعلى هذا النحو كان شوقى هو صوت مصر للعالم العربى .. والمعبر عن وجدانها نحوه .

● موقع شوقى من خريطة الشعر العربى أين يكون ؟

● وتابعت

● سؤال أعتذر عن تقليديته . ولكنه قد يكون مهما بالنسبة لجيل جديد يريد أن يتذوق شوقى .. أى مسرحيات شوقى بلغ القمة فى نظرك .. وما هى القصيدة التى تعتبرها أروع قصائده ؟

- هناك مسرحيتان تعدان فى الذروة بالقياس إلى مسرحياته : « مصرع كليوباترة » ومن الغريب أن شوقى كتبها لمعارض مسرحية شكسبير « انطونيو وكليوباترة » وكأنما كتب لشوقى دائما أن يتفوق حينما يعارض غيره من كبار الشعراء . فإن من يقرنها إلى مسرحية شكسبير يعرف مدى قدرة شوقى الفنية .. والمسرحية الثانية هى « مجنون ليلى » فالبناء المسرحى فيها بالغ الاحكام . والشخصيات مصورة تصويرا دقيقا والصراع يمتد فى خيط متصل . وتقل إلى حد ما نزعة الإطالة فى جزئيات الحوار .. وهذه المسرحية جديرة بأن تستغل فى « أوبرا » غنائية طويلة .

أما القصائد فمن الصعب أن نختار لشوقى قصيدة واحدة .. طبعا هناك قصيدة « كبار الحوادث فى وادى النيل » وهى أشبه بشريط من أشرطة دور الخيالة يعرض فيه تاريخ مصر منذ أبعد الأزمنة .. ولا تقل عنها روعة قصيدته فى النيل .. التى جسدت شخصية النيل المعنوية بجانب شخصيته الحسية .. وبجانبهما نلقانا فرائده فى المديح النبوى .. ورائيته التى يخاطب فيها شباب مصر بقوله :

وجه الكنانة لبس بغضب ربكم
أن تجعلوه كوجهه معبودا
إن الذى قسم البلاد حباكمو
بلدا كأوطان النجوم بجيدا
قد كان والدنيا لمود كلها
للعبقرية والفنون مهودا

● موقع شوقى من خريطة الشعر العربى فى مختلف عصوره أين يكون ؟

- فى رأيى أن شوقى يعد أكبر شاعر فى العصر الحديث لروعة موسيقاه وشاعريته الخلابة واتساع آفاقه بجانب أنه رائد الشعر المسرحى غير منازع .

وإذا أردنا أن نقرنه إلى أعلام الشعر العربى فى عصوره على مر التاريخ نجده يأخذ مكانة سامقة بين افذاذهم ومن الصعب المقارنة بينه وبين أحدهم لا ختلاف العصور والظروف والثقافات . ومع ذلك فهو يعد فى الذروة منهم .. ذروة يندر أن يبلغها أحد منهم !

●